

الإسلام والهند

لقد شهد العالم حروباً ثلاثاً دارت رحاها بين الهند الهنوسية وباكستان المسلمة على مدار نصف القرن المنصرم، وقد تكون الحرب القائمة بينهما -حال قيامها- حرباً نووية. إن الصراع على إقليم "كشمير" كان البذرة الرئيسية لنزاع طويل بين الطرفين، تمثل في حرب بالوكالة ما تزال مستمرة بينهما حيث تخوض جماعات "تحرير كشمير المسلمة" حرب عصابات ضد الحكم الهندي القمعي. كذلك، فقد نفذت الجماعات الإسلامية المتسعة بالعنف، والمرتبطة غالباً بالجانب الباكستاني، عمليات إرهابية دموية عديدة داخل الهند.

إن الهنود والباكستانيين لم ينسوا أبداً التقسيم الأليم للهند، والذي خطط له ونفذه الاستعمار البريطاني عام ١٩٤٧، والذي أسفر عن مقتل الملايين من الهندوس، والسيخ، والمسلمين أثناء الهجمات الوحشية ما بين الأطراف الثلاثة، والتي شهدت عمليات ترحيل واسعة للسكان المسلمين من الهند باتجاه دولة باكستان "الجديدة"، والهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند. فإذا لم يكن ذلك "محوراً" للصراع بين الحضارات، فما الذي عساه يكون كذلك؟!

من بين جميع "الحدود" القائمة بين الإسلام والثقافات والحضارات الأخرى، تبرز الهند كحالة شائكة وحرجة للغاية. فالإسلام لا يقتصر على متاخمة الهند (إذ يوجد في باكستان وبنجلاديش)، إذ عاشت أعداد كبيرة من المسلمين داخل الهند على مدار أكثر من ألف عام، في ظل روابط وعلاقات بالغة التعقيد والثراء مع الهندوس هناك. وعلى امتداد التاريخ، اضطلع المسلمون بأنوار شديدة التنوع على

مسرح الأحداث بالهند : فهم تارة تجار مسلمون قاموا بنشر الإسلام فى الجنوب، وتارة غزاة فاتحون نزحوا من آسيا الوسطى نحو الشمال - إذ أنشأ المسلمون واحدة من كبريات "الحضارات الاندماجية" على مر التاريخ بين الإسلام والهندوسية، والتي تمخضت عن الإمبراطورية "الموغالية" العظيمة. ثم أضحى المسلمون، أخيرا، قلة منهزمة فى أعقاب تقسيم الهند عام ١٩٤٧ ... قلة توزعت بين باكستان (الحديثة آنذاك)، وبين الهند التى يحيون بها كأقلية يجرى التعامل معها على نحو تمييزى، ويعانى أفرادها اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. وتمثل الهند، كذلك، أول تناول لنا لحد من "الحدود" غير المسيحية فى تعامله مع الإسلام.

وفقا لسيناريوهاتنا البديلة "لعالم بلا إسلام"، تبدو الملامح فى الحالة الهندية أقل وضوحا. فعلى جانب، كانت الأمور لتختلف اختلافا واضحا ما لم يكن ثمة إسلام : إذ كان العالم سيحرم من المزيج الحضارى المبههر فيما بين الهندوس

والمسلمين، والذي انتظمته الإمبراطورية الموغالية. وفي الوقت ذاته، لم تكن الصراعات الدينية المؤسسة بين الهندوس، والمسلمين، والسيخ لتحدث إذا لم يكن ثمة إسلام. لذا، وفي هذا السياق، فقد يكون السؤال الأكثر إثارة: هل كان الصراع بين الهندوس والمسلمين أمراً محتوماً لا سبيل إلى تجنبه؟ وهل كان لذلك "الحد" من حدود الإسلام وتخومه أن يكون دمويًا بالضرورة؟ ما السبب وراء ما نحن عليه الآن، وكيف بلغنا تلك الحال؟ وهل يتعلق الأمر، حقيقة، بالعنصر الديني؟ أم يمكننا أن نعزو جذور المشكلة إلى سياسات بريطانيا التي تخدم مصالحها الذاتية، والتي اتبعتها إبان حكمها الكولونيالي للهند؟

إن اللقاء الأول للإسلام والهند قد مثل حداً ثقافياً جديداً للمسلمين: إذ لم تكن الهندوسية مجرد ديانة قديمة مركبة تتسم بسعة الانتشار وتعدد الأوجه، بل كانت كذلك أول ديانة يلقاها الإسلام من حيث عدم ارتباطها بديانات الشرق الأوسط، وأهل الكتاب. إذًا، فقد مثلت الهندوسية خبرة بالغة الاختلاف للمسلمين، لما اتسمت به من تعدد للالهة، وغزارة في التصاوير الدينية غير المألوفة، ومزيج مذهل من الرموز البشرية والحيوانية والعناصر الميثولوجية، وكذا الرسوم العارية وشبه العارية في الفنون الدينية للكثير من الملل الهندية - فجماع ما سبق قد أدى إلى جعل الهندوسية "صادمة" على نحو يفوق أية ديانة أخرى يمكن أن يشهدها علماء المسلمين. إلا أن متطلبات الواقع سرعان ما أدت إلى إحداث توافقات، فنشأ تعايش مضطرب فيما بين الهندوس والمسلمين.

لذا، فليس من المستغرب أن نجد مدارس "تأويلية" مختلفة تناولت كامل الخبرة الإسلامية في الهند. فالقوميات، جميعها، تذهب إلى قراءة التاريخ على نحو ارتجاعى، أى أن مؤرخيها يسبرون أغوار التاريخ للتنقيب عن أسانيد وبراكين يكون من شأنها دعم مزاعمهم القومية والإقليمية وتأييدها لليوم والغد. فوفقاً للقوميين الهندوس، فإن الديانة الهندوسية لها جذور ممتدة ضاربة في أعماق التربة الهندية على نحو لا يضاهى. لذا، فإن أية ديانة أخرى تسعى لاختراق تلك التربة،

إما أن يتم استيعابها أو ينظر إليها باعتبارها متفلاً دخيلاً. لذا، ينظر إلى كل من المسيحية والإسلام وفقاً للمنظور الأخير - وذلك على أساس سياسى وثقافى بأكثر من كونه على أساس دينى. ويسعى كل من الإسلام والمسيحية إلى استقطاب الهندوسية لما فيه صالح كل طرف منهما. إن حقيقة وجوب كونه الرمز العالمى للهند، والأكثر انتشاراً اليوم، هو المعمار الإسلامى المثالى لتاج محل - لتثير استياء بالغا لدى القوميين الهندوس. إلا أن الهند بدون المزيج الحضارى الذى مثّله الإمبراطورية الموغالية كان لها أن تكون موضعاً فقراً بلقياً يعانى تصحراً ثقافياً.

إن الوثائق الأكثر انفتاحاً وليبرالية لهذا التاريخ ذاته لتزدهو بالثمار الجنية للحضارة الهندوسية الإسلامية. إذ أثرت كل ثقافة فى الأخرى تأثيراً كبيراً فى منح عدة بما يثبت القدرة الاستيعابية الإبداعية، وكذا المرونة التى يتمتعان بهما. بيد أن المسلمين الهنود، اليوم، قد أصبحوا أقلية محرومة داخل المجتمع الهندى الكبير الذى حكموه يوماً، وأسهموا فى تشكيل بنيانه وقواعده. فقد جاء المسلمون إلى الهند من خارجها، ثم احتلوا صدارة المشهد، ثم أهبطوا إلى الدرك الأسفل، وأمسوا اليوم يتفكرون ملياً بشأن وضعهم كأقلية فى ظل الأحوال الجديدة لدولة الهند الحديثة. ولعل ذلك المسار التاريخى المتنوع هو الذى أمد المسلمين الهنود برؤية ثاقبة بعيدة للإسلام فى مجتمع متعدد الثقافات، لا تدانيها رؤية أخرى على امتداد العالم بأسره.

إن المسلمين قد فتتوا بالهند لأسباب عدة: أولاً، كونها واحدة من الأقاليم العديدة بجنوب وجنوب شرق آسيا التى لم ينتشر بها الإسلام بحد السيف. إذ تم تعزيز العلاقات التجارية بين الملاحين العرب ممن مارسوا التجارة، وبين الساحل الجنوبى الغربى للهند قبل مجىء الإسلام بزمن كبير. ووفقاً للوثائق الهندوسية، فإن أول نزوح فعلى للمسلمين باتجاه شبه القارة الهندية قد جرى فى أوائل القرن السابع الميلادى، واتخذ شكل الرحلات التجارية. ويذكر أنه قد جرى تأسيس أول مسجد بالهند فى كودونغالور، الواقعة حالياً بمقاطعة كيرلا، وذلك فى عام ٦١٢، فى

حياة النبي محمد.

ويرصد المؤرخون تمايزات بالغة ما بين طبيعة الإسلام في شمال الهند، وطبيعته في جنوبيها. إذ جاء الإسلام ليدخل الهند ميكرًا عبر الحدود الجنوبية، وذلك عن طريق التجارة والتبشير بالدين الجديد. أما الشمال، فقد دخل الإسلام هناك بعد عدة مئات من السنين كواحد من العديد من الغزاة -من آسيا الوسطى- الذين دخلوا الهند عبر الحدود الشمالية. ونتيجة لذلك، نجد صدًى أوسع للتوترات ما بين المسلمين والهندوس في شمال الهند مقارنة بجنوبه ... فالجنوب قد شهد اندماج المسلمين التدريجي ضمن نسيج الثقافة المحلية، مقارنة بالشمال الذي غزاه المسلمون بواسطة جيوشهم المكونة من مزيج من الفرس، والعرب، والأتراك، والمغول.

ولقد دخلت الجيوش العربية المسلمة شمال الهند في ظل الخلافة الأموية بدمشق، وقامت بغزو السند، في أقصى غرب شبه القارة الهندية. وفضلاً عن ذلك، فقد جاءت الغزوات الحربية الإسلامية في القرن العاشر الميلادي. وأخيراً، قام القائد العظيم، بابور، نو الأصول التركية المغولية والقادم من آسيا الوسطى، بتأسيس الإمبراطورية الموغالية، مع سقوط دلهي عام ١٥٢٦. ولقد سيطر الموغال إبان أوج دولتهم على معظم الأراضي الهندية. إن الموغال أنفسهم قد مثلوا مزيجاً من الثقافة التركية المغولية والثقافة الفارسية، وقد أدخلت اللغتان التركية والفارسية إلى الهند حيث كان لهما أثر كبير على الثقافة واللغة الهندية.

ووفقاً لما كتبه "ستيفن كوهين"، الباحث بمعهد بروكينغز :

بالرغم من اعتبار كل من الفاتحين اليونانيين، والهنغاريين، والشيشيين، والمسلمين شبه القارة الهندية على أنها امتداد لقواعد نفوذهم الخارجي، فقد انتهوا إلى النظر إلى العالم من خلال رؤية محورها الهند. لقد كانت القدرة الاستيعابية للمجتمع الهندي مذهلة على الدوام ... أما الإسلام فقد جلب تقنيات عسكرية جديدة

وأفكارا سياسية ودينية، بيد أنه لم يقم بتدمير الحضارة الهندية مثلما دمر ثقافة فارس ما قبل الإسلام. وأخيرا، فقد تم توحيد الهند على أيدي الموغال وفقا لنظام إمبريالي. ووفقا للترتيبات الجديدة، فقد تأثر الإسلام كثيرا بالهندوسية بالقدر الذي فاجأ الإسلام الهندوسية وقام بتطويرها.

أما الإسلام الصوفي، بما له من طابع توفيقى، فقد نال استحسان العديد من الهندوس، وأسهم فى تخفيف وطأة التأثير الإسلامى. بيد أن رجال الدين المسلمين لم يخلصوا أبدا إلى اتفاق فيما بينهم بشأن كيفية التعامل مع الهندوسية، ومن ثم الهندوس. لقد أمضى العالم الموسوعى الفذ، البيرونى، بعض الوقت فى الهند فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ملاحظا ومراقبا المجتمع. وخلص البيرونى، فى النهاية، إلى أن الهندوسية، رغما عن اشتغالها على آلهة متعددة، كانت ديانة توحيدية بالأساس :

"يؤمن الهندوس بأن الرب واحد، أزلى، بلا ابتداء ولا انتهاء، يفعل كيفما شاء، شديد الطول، حكيم، محيى، مقتدر، حفيظ. كذلك، فالرب متفرد فى وحدانيته، قنوس، منزه عن التشبيه، ليس كمثلته شئ".

ولكن ماذا عن "الآلهة" المتعددة التى يتعبد لها الهندوس؟ يؤمن البيرونى بأن عبادة تلك "الآلهة" تعكس، بالضرورة، الجهل الدينى للفئات الدنيا من المجتمع التى تتعلق بها، أما الهندوسية كمفهوم فلسفى رفيع راق فتشارك الإسلام منهجه التوحيدى. وبغض الطرف عما إذا اتفق المرء مع هذا التأويل أم لا- والذى يرفضه، بالتأكيد، أغلبية "العلماء" المسلمين - فإن ما خلاص إليه البيرونى هو أمر صارخ وصادم خاصة حينما يصدر عن عالم مسلم مثله.

وبالنسبة لأغلبية "العلماء" المسلمين فى الهند، فإن إدراج الهندوس ضمن "أهل الكتاب" يبدو غاية ثيولوجية مستحيلة، ولكن إذا لم يكن الهندوس كذلك، فإنه يمكن أن يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام. ولقد زهبت الحماسة ببعض العلماء ممن

فرضوا اعتناق الإسلام بالقسر إلى القول بقتل الرافضيين لاعتناقه. وتشير المصادر إلى أن معابد هندوسية قد تم تدميرها في كثير من أرجاء الهند، فيما تم تحويل معابد أخرى لتصبح مساجد للمسلمين. ولعل الممارسة الأكثر شيوعاً من استخدام العنف هي ما ورد عن أن الموغال قد قاموا برفع سعر الجزية المفروضة بغية الضغط على فقراء الهندوس للتحويل إلى اعتناق الإسلام، والذي إن تم فسيؤدي إلى إعفائهم من دفع تلك الجزية. بل لقد تحول كثير من الهندوس ممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا إلى اعتناق الإسلام للانعقاد من ذلك النظام الطبقي الصارم، أو بغية الانضمام إلى النسق الثقافي الحاكم. ولكن لم يستطع الموغال، في النهاية، إجبار الغالبية على التحويل إلى اعتناق الإسلام، وقد كانوا أدركوا ذلك بالفعل، لذا فقد استقرت الأحوال وفقاً لنوع من "التعايش البارد"، على الأقل من وجهة نظر "العلماء" المسلمين. ومن منطلق وظيفي، فقد أضحى الهندوس وكأنما هم من "أهل الكتاب" - بصورة اسمية فقط - حتى ولو كان ذلك غير مسموح به، وغير متوافق مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

وعلى الجانب الآخر، فعلى حين كانت أعداد قليلة من المسلمين تذهب لزيارة المعابد الهندوسية، كانت أغلبية الهندوس تبتهج لزيارة المساجد والأبنية الدينية الإسلامية كتعبير عن التوفيقية الهندوسية، وإيمانها بعالمية الدين ووحدة الوجود. إن الهندوسية لا تسعى إلى اجتذاب متحولين لاعتناق عقيدتها - فهي نسق مغلق لا يسمح، بالأساس، بانضمام معتنقين جدد، فالمرء يجب أن يكون منتمياً للنسق منذ مولده. فإذا ما رغب المرء في اعتناق الهندوسية، يتعين عليه، على نحو وظيفي، الانضمام إلى طبقة اجتماعية بذاتها وجماعة يعينها. ولكن، إلى أية طبقة سيتم قبول المتحول للانتماء لها قانونياً إذا افتقر إلى جماعة أو روابط قرابة؟ فدون طبقة يعينها تلازم المرء منذ مولده، يترك المرء ليحيا في غلالة اجتماعية هندوسية من النسيان. وقد حدثت اندماجات لم تكن متوقعة. فعلى الصعيد الرسمي، لا يرحب الإسلام مطلقاً باندماج تقاليد دينية مخالفة به. إلا أن الهند كانت قد شهدت، على

الأقل، تجربة فريدة لاندماج الإسلام مع الهندوسية، وهى إحدى بنات أفكار العقل المبدع للإمبراطور "أكبر" العظيم (١٥٤٢-١٦٠٥)، وهو حفيد الإمبراطور بابور. ويعد "أكبر" أحد أهم الحكام الموغال على مدار أربعة قرون.

وقد كان "أكبر" مدركا لفوضى العقائد المتصارعة داخل الهند، بما فيها الإسلام (السنة، الشيعة، الإسماعيلية)، والطوائف العديدة بداخل المعتقد الهندوسى، واليانية، والزرادشتية، والمسيحية، واليهودية. كذلك، فقد كان يتسم بالتسامح، والافتتان بالدين والمناقشات الدائرة حوله، بالإضافة إلى حرصه على جمع معتقئ العقائد المختلفة للتباحث بشأن القضايا الثيولوجية والأخلاقية. وكنتيجة لتلاحق الآراء المختلفة، توصل "أكبر" إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد دين واحد له حق ادعاء احتكار الحقيقة بأكملها، لذلك فقد قام بخطوة ثورية لاستحداث دين جديد أطلق عليه "الدين الإلهى"، والذي مثل مزيجا من الإسلام، والهندوسية، والمعتقدات الفيذاوية Vedic، إلى جانب بعض المعتقدات المستقاة من المسيحية واليهودية. وقد كان "أكبر" يأمل، من خلال انتشار "الدين الإلهى"، أن يصل إلى وحدة تنتظم الهند لا يعكر صفوها أى تباين أو اختلاف دينى - ضرب من الواحدة الدينية !!

لقد كان المسلمون، بالفعل، على دراية بالعقيدتين اليهودية والمسيحية اللتين سبقتا الإسلام. أما "الدين الإلهى" فقد اشتمل عناصر من الصوفية والفلسفة والأخلاقيات وتقديس الطبيعة، مع التشديد على التسامح وقبول التنوع الدينى. ولم يكن هذا "الدين الإلهى" يعترف بوجود إله أو أنبياء أو كتب مقدسة. إلا أن ذلك المزيج من الأفكار الوثنية قد أثار حفيظة معظم "العلماء المسلمين"، الذين رأوا الفكرة برمتها تجديفاً وهرطقة، بالرغم من ضرورة كونهم حذرين بشأن ما اقترحه الإمبراطور. وفى النهاية، فإن "الدين الإلهى" لم يكن ليتجاوز أعتاب القصر الإمبراطورى، فقد كان غاية فى الغرابة مفتقرا إلى أدنى ركيزة اجتماعية أو ثقافية. إلا أنه كان يمثل رؤية مميزة لفكر مسكونى مبكر، كذلك فقد ظل الإمبراطور "أكبر"

حاضرا في ذاكرة الهندوس، إلا أنه لم يلق استحسانا أو قبولا لدى أغلب علماء المسلمين.

فإذا كان ذلك "الانصهار" الديني قد بدأ مهما، فقد كان المعمار الموغالى فريدا وأسرا ... ذلك المعمار الذى كان مزيجا رائعا من الفن الهندوسى والإسلامى مع نكهة فارسية غالبية جعلته الملمح الأكثر شهرة وخلودا من آثار الإمبراطورية. إن الأبنية العامة الخالدة المنتمية للحقبة الموغالية تظل منارات فنية خالدة إلى يومنا هذا، لعل أشهرها "تاج محل" الذى حقق كمالا منقطع المثال، وإن نافسته فى ذلك مجموعة من القصور والقلاع والمساجد والمدارس، تم تشييدها فى الأغلب بواسطة الحجر الرملى الأحمر. وقد كان للطراز الموغالى تأثير واضح على العمارة الإسلامية على امتداد العالم، بل لقد تم تشييد عدد كبير من الأبنية العامة والخاصة وفقا لذلك الطراز المعمارى فى أنحاء بريطانيا - بما جاء معبراً عن حقبة حكم "الراج" أثناء الاحتلال البريطانى للهند.

كذلك، فقد كان للحقبة الموغالية آثار واضحة فى الشعر بما خلفته من أشعار عظيمة وخالدة، كذلك فقد أسست تلك الحقبة لقواعد الموسيقى الكلاسيكية الهندية. بل إن أشهر أطباق الطعام الهندى فى العالم تتبع نمط الطهو بشمالى الهند، وهو مزيج رائع للمطبخ الهندى التقليدى، ونمط الطهو الفارسى ... مزيج يعرف باسم "الطهو الموغالى". أما اللغتان الشقيقتان الهندية والأوردية فتمثلان تمازج الألسن الفارسية، والعربية، والتركية، ودمجها فى قاعدة نحوية خاصة بلسان الشمال الهندى، وتظل تانك اللغتان أبرز اللغات السائدة اليوم بشمالى الهند، وباكستان. وبعبارة موجزة، فإن الحضارة الهندية المعاصرة لا يمكن تخيلها بدون ذلك العنصر الموغالى. وبالرغم من ذلك، فلا يروق الأمر لعدد من القوميين الهندوس.

أما فيما يتعلق بالتمازج المشترك، فإن أحد التأثيرات الكبرى فى الإسلام يظل أقل ملاحظة ... ذلك هو النظام الطبقي الاجتماعى الهندوسى وأثره فى المسلمين

الهنود. فوفقاً لذلك النظام، يولد المرء ليحتل مكاناً محدداً في السلم الطبقي طيلة حياته... ولا يتغير ذلك الوضع الطبقي وفقاً للاعتبارات الطبقوسية والاجتماعية. إذ يجب ألا يمس أي فرد من أبناء الطبقة العليا أياً من المنبوذين (أفراد الطبقات الدنيا)، فإذا ما حدث ذلك توجب على الأول أن يتطهر من ذلك وفقاً لمظاهر طبقوسية. كذلك، فإن وضعية المرء في تلك التراتبية تحدد المدى الذي يسمح له بالتحرك خلاله فيما يخص الاعتبارات الوظيفية والاجتماعية. ولطول تعرضهم لذلك النظام الطبقي عبر فترات زمنية ممتدة، تشرب المسلمون بالهند بعض عناصره حيث أصبح المجتمع الإسلامي هناك ينقسم رسمياً إلى طبقتين: الأشراف (أو النبلاء) والأجلاف (أو الأقل شأناً). وفيما مثل المسلمون في الهند نسبة قليلة للغاية من تعداد السكان حين غزا المسلمون شمال الهند للمرة الأولى، إلا أنه، وبمرور الوقت، أخذت أعداد متزايدة من الهندوس في اعتناق الإسلام، مع ما صاحبهم من بقايا اجتماعية لوضعهم الطبقي الأدنى. وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم (١٩٤٧) ما نسبته ١٤٪ من إجمالي تعداد السكان.

إلا أنه، ووفقاً لمقتضيات الشرع الإسلامي، فإن أي نظام طبقي فيما بين المسلمين يعد مرفوضاً بالارتكان إلى أي معيار ديني، إذ يعلن "القرآن" بجلاء أن معايير التمايز والتفاضل فيما بين البشر كافة هو التقوى. على أننا نشهد الأثر الثقافي والحضاري المتبادل نتيجة لتعايش الأديان جنباً إلى جنب في شبه القارة الهندية.

وينجم عن ذلك كله عدة مشاهدات وانطباعات مذهلة. أولاً: لم يكن هناك أدنى احتكاك ملحوظ بين المسلمين وغيرهم حين دخل الإسلام جنوب الهند عبر التجار والبشرين. فقد كان المسلمون في الجنوب متمائلين إثنياً مع جيرانهم من الهندوس. إلا أنه كانت ثمة تباينات إثنية في الشمال الممثل للنقوذ السياسي هناك. وبالأساس، فقد مثل المسلمون نور الأصول التركية الفارسية والتازحون من آسيا الوسطى غزاة من خارج الهند، حيث تم النظر إليهم باستياء من قبل أولئك الذين

أبعدوا عن مقاليد السلطة والنفوذ. وتكمن الظاهرة الثانية في كيفية نجاح العقائد "غير المتوافقة" في التعايش فيما بينها في ظل ظروف التعاطي البشري اليومي، بل وحتى تأثيرها المتبادل، ذلك على الرغم من وجود حالات من العنف بين تلك الطوائف الدينية. والأمر الثالث هو انبثاق ثقافة متمازجة اشتملت على خليط من الحضارات السائدة كانت آية في اليهء والروعة لا تقل في رونقها عن امتزاج الإسلام بالحضارة الفارسية في إيران، كما لا تقل عن تزوج العنصر الإسلامي التركي مع الحضارة البيزنطية في الإمبراطورية العثمانية.

إذاً، فوفقاً لتلك الديناميكية الفائقة، والتي اشتملت على تلاقح إثني خصيب بالإضافة إلى تأثيرات حضارية ودينية متبادلة ... فإن "الحدود الدموية" هنا تضحى غير ذات موضوع. فهل كان لفارس الزرادشتية أن تمتنع عن غزو الهند؟ وعلى أي نحو كان هذا الغزو ليختلف عن غزو المسلمين لها؟ هل كانت العناصر التركية غير المسلمة في آسيا الوسطى لتحجم عن الانضمام لجماعات وعناصر أخرى لغزو الهند من جهة الشمال؟ ... من الجلي أن الإسلام لم يكن العنصر الحاسم في ذلك كله.

التقسيم

المسلمون: أين هم اليوم؟

مع الانهيار التدريجي للإمبراطورية الموغالية، نتيجة الاعتداءات الإمبريالية البريطانية، أخذ النظام الموغالي يفقد نفوذه وسلطانه، مما أدى إلى تراجع تدريجي في مكانة المسلمين بالهند. كذلك، فقد لس البريطانيين قدراً من المقاومة لحكمهم لدى المسلمين يفوق نظيره لدى الهندوس، ومن ثم شرعهم في إعطاء أفضلية وحظوة أكبر في حكمهم ونظامهم للهندوس كونهم أكثر استجابة وألين عريكة.

ولقد كان المسلمون، بالفعل، ينشطون بفاعلية كبيرة في العديد من مظاهر الاحتجاج والمقاومة ضد حكم "الراج" البريطاني، وخاصة نورهم المحوري في

التمرد الهندي الكبير في عام ١٨٥٧، حين تظاهر المجندون المسلمون في الجيش البريطاني، وقاموا بأعمال شغب نتيجة الشائعة التي سرت ومقادها استخدام دهن الخنزير في صنع ذخائر الطلقات الرصاصية لبنادقهم. وقد أعرب الهندوس، لاحقا، عن مقاومة مماثلة لتلك. وكان الاستياء السياسي والاجتماعي في الهند المحتلة من قبل بريطانيا قد بلغ أشده بما يكفي لشرارة حادثة كتلك لإشعال ثورة قومية هناك. وفي وجه نفوذ الحكم البريطاني وسطوته، اتحد المسلمون والهندوس، عامة، للحد من وطأته وإن اختلف المنهج التكتيكي لتداول الأمر فيما بين الطرفين.

وفي حين أخذت القوة الإمبراطورية للموغالية في الضمور تدريجيا وكذلك حين غزا البريطانيون الهند، وجد المسلمون أنفسهم أقلية بلا نفوذ داخل النظام السياسي الهندي فضلا عن نظرة البريطانيين المتشككة إزاءهم، والذين تساءل بعضهم فيما بينهم ما إذا كان المسلمون ثوريين بالفطرة ضد الحكم الأجنبي عامة. وباقتراب يوم التحرر الهندي من قبضة الحكم البريطاني في أعقاب الحرب الكونية الثانية، أصبح المسلمون قلقين للغاية بشأن الدفاع عن حقوقهم كأقلية في الهند فيما بعد الاستقلال. وكان المسلمون يخشون أنه في ظل نظام ديمقراطي صريح، يمكن أن يكون مألهم أن يصيروا، وعلى الدوام، أقلية لا صوت لها. لذلك، فقد كانوا يفضلون شكلا أو صيغة لنظام كونفدرالي لا يكونون بمقتضاه على الدوام أقلية هامشية (وهو مأزق تقليدي يواجه جميع الأنظمة الديمقراطية، والتي نادرا ما تستطيع الأقليات في ظلها تغيير النظام بالالتجاء إلى صناديق الاقتراع). وفضلا عن ذلك، لم يكن المسلمون بالهند وحدة متجانسة، وإنما كانوا منقسمين وفقا للطبقة الاجتماعية، وكذلك وفقا للاختلافات الإقليمية واللغوية.

وأخيرا، فلم يكن التقسيم الفعلي للهند إلى دولتين (الهند وباكستان) الهدف المفضل للمسلمين هناك. ولكن تحت ضغط الأحوال والظروف السائدة حينذاك، وكذا مخاوف الهندوس بشأن القيود التي قد يفرضها المسلمون على القوة المركزية

للهند المستقلة مستقبلا، بزغ "التقسيم" فجأة كخيار مناسب للأطراف كافة في الهند.

إن الكثير من "العلماء" المسلمين في الهند قد عارض تقسيم البلاد وإنشاء دولة إسلامية مستقلة جديدة (باكستان). كذلك، فقد ارتأوا، وقد حالفهم الصواب، أن المسلمين لن يرحلوا جميعا إلى باكستان، وأن هؤلاء المسلمين الذين سيبقون داخل الهند بعد الاستقلال سيصبحون أقلية (أدنى عدديا عما كانت قبل الاستقلال) تتلاعب بها الأغلبية الهندوسية ذات النفوذ. وعلى وجه التقريب، فقد عبر ١٤,٥ مليون مواطن الحدود المنشأة حديثا سواء إلى داخل الهند أو إلى خارجها خلال عملية التطهير العرقي تلك، والدارة من قبل بريطانيا عام ١٩٤٧، والتي أطلق عليها لفظة "التقسيم". ولقد اتسمت تلك العملية بمظاهر عنف مروعة واسعة النطاق وذلك خلال انتقالات الأهالي عبر الحدود، وما صاحب ذلك من مجازر وحشية بين معتققي المعتقدات الثلاثة السائدة: السيخية، والإسلام، والهندوسية. وقد كانت المحصلة أن المهاجرين الجدد - المسلمين بانتقالهم نحو باكستان، والسيخ والهندوس صوب الهند - قد عانوا الإيذاء والتفويض أثناء تلك الرحلات، وأصبحوا في عداد أكثر الأفراد غير المتسامحين دينيا في كلا المجتمعين الجديدين. إذأ، فقد مثلت السياسة قنابل موقوتة جاهزة للانفجار في كلتا النواتين. وبطبيعة الحال، فإن الوضع بالنسبة للمسلمين الذين لم ينتقلوا إلى باكستان قد أصبح أكثر سوءا، فلم يقتصر الأمر على تقلصهم عدديا وفقدانهم لأي نفوذ سياسى، بل تعداه بأن أصبح ولاؤهم للدولة الهندوسية الجديدة موضع شك وريبة. وفي الحروب الثلاث، والتي ستنشب فيما بين باكستان والهند في السنوات التي تلت ذلك، أصبح الهندوس ينظرون إلى المسلمين بالهند بأنهم لا يعتمد عليهم ولا يوثق بهم ... بل وصل الأمر إلى حد اعتبارهم "طابورا خامسا" محتملا.

أما في كشمير، فقد كان الوضع مضطربا كذلك. لقد كانت كشمير مقاطعة ذات أغلبية مسلمة (٧٧٪ عام ١٩٤٧) وطابع تاريخى وإثنى مميز. ولقد وعدت

كشمير من قبل البريطانيين عام ١٩٤٧ الحق في استفتاء شعبي يقضى بموجبه ما إذا كانت المقاطعة ستظل تابعة للهند أم ستؤول تبعيتها لباكستان. ولكن تم النكث بالوعد، إذ كان من المؤكد أن الهند ستخسر المقاطعة ما إذا كان الاستفتاء الشعبي ليتم بحيدة ونزاهة. وإلى اليوم، فما زالت الأغلبية المسلمة بكشمير تمتلكها مشاعر الغضب والاستياء، وما زالت تتظاهر من أجل حقها في الاختيار. إن السلطات الهندية قد حكمت البلاد بقبضة فولاذية وأدارت كشمير برعونة وانعدام كياسة. فإلى جانب حروب ثلاث دارت رحاها بين باكستان والهند، في جانب منها حول كشمير المتنازع عليها ... تلك الحروب التي خسرتها باكستان جميعا - فإن ذلك "الملف" يتيح بيئة خصبة لكي تمارس باكستان ضغوطا على الهند من خلال الدعم المستتر الخفي للحركات الانفصالية الكشميرية المسلحة. ولا ريب في أن تلك المعارك الممتدة فيما بين الطرفين تعمل على إفساد العلاقات بينهما حتى اليوم، فضلاً عن كونها مصدراً رئيسياً للإرهاب الإقليمي.

يشكل المسلمون ، اليوم، ١٣٪ من إجمالي تعداد السكان بالهند، على وجه التقريب. وللأسف، فإن الجماعة الإسلامية هناك قد أصابها التشرذم والانقسام. فمن جهة، تضغط العناصر الأكثر تشددا دينيا لإقامة مجتمع إسلامي منفصل ومستقل ذاتيا يمكنه العيش بمعزل عن الهندوس - وهو أمر محال لانتشار المسلمين إذ يتوزعون على جميع أرجاء البلاد ككل. ولقد أسهمت تلك السياسة التي تروج لهوية جماعية، مهما كانت العواقب، في زيادة عزلة المسلمين بالهند. ومن جهة أخرى، تسعى جماعات صغيرة من المسلمين لتجاوز مفهوم "الجمعية"، وتنادى بالاندماج في الدولة الهندية "العلمانية". فوفقا لتلك الجماعات، فإن التماس "البعد الجمعي" واعتباره الملاذ الآمن هو ممارسة تنطوي على الشعور بالخوف وافتقار الأمان، أما السعى للتكامل في إطار صيغة "علمانية" فيعكس الشعور بالتفاوت والثقة. وبالطبع، فلدى كل فريق ما يكفي من الحجج لإثبات صحة مذهبه ولدعم موقفه المتبنى.

على أن الخيار لا ينحصر في أيدي المسلمين فحسب. إذ نشأت فيما مضى حركة قومية هندوسية قوية ذات طابع إثني/ديني، واستهدفت العناصر غير الهندوسية، وبخاصة المسلمين، والذين تراهم الحركة حجر عثرة في طريق إنشاء دولة دينية هندوسية. ولقد أثرت الحركة، وتدعى "حزب بهاراتيا جانانا"، في سياسات الهند القومية فيما مضى، وقد تكرر ذلك مستقبلا عن طريق النفاذ إلى العديد من حكومات الولايات الهندية والسيطرة عليها. ويعد العنف الممارس من قبل "القوميين الهندوس" تهديداً بالغاً لجماعة المسلمين في الهند... والتي تحصرهم جميعا في كيان مجتمعي شديد الانعزالية.

أما القومية الهندوسية فلا يمكن أن تنبني إلا على أسس دينية، إذ لا توجد "إثنية هندوسية" في حد ذاتها. فالهندوس ينحدرون من خلفيات إثنية ولغوية بالغة التنوع، كما الحال بالنسبة للمسلمين. وبخلاف الزعامات الهندوسية الأكثر ميلا نحو "العلمانية"، فإن "القوميين الهندوس" كانوا شديدي التأييد لتقسيم الهند عام ١٩٤٧، تحديدا لطرده المسلمين منها بما يكفل إنشاء دولة هندوسية. ولعل بعضا من استياء الهندوس من المسلمين، والسيخ، والمسيحيين وكراهيتهم لهم يجد أساسه في أن مجرد وجود تلك الطوائف في الأراضي الهندية يستلزم الإبقاء على دولة هندية علمانية ذات تعددية ثقافية، وهو بعينه ما يسعى "القوميون الهندوس" إلى اجتثاث جذوره. والمفارقة، فإن المسلمين، اليوم، هم الذين يؤيدون بشدة إنشاء دولة علمانية، وهو أمر لا يجد نظيرا في أي من البلدان الإسلامية، فلكونهم أقلية، يدرك المسلمون تماما المنافع التي ستتحقق لهم جراء إنشاء "الدولة العلمانية" من الإبقاء على سمات ثقافتهم، ومجتمعهم، ومعتقدهم، والحفاظ عليها ضد أي تدخل رسمي من الدولة هندوسية المعتقد. وبصفة عامة، يشعر المسلمون في الهند بأن ثقافتهم، وحضارتهم بالهند أكثر غنى وخصبا من تلك الخاصة بباكستان ... باكستان التي طالما اعتبرت هملا إقطاعيا لا يتسم إلا بموروث ثقافي هزيل. فلما أثر الثقافية والحضارية الكبرى للهند إبان الإمبراطورية المغولية قد بقيت ضمن الأراضي

الهندية بعد التقسيم، ما عدا ما تعلق بمدينة "لاهور".

وفى تلك الأجواء، فإن الانتفاضات الجماعية لم تحب مطلقا. إذ أصبحت مدينة "أيوديا"، فى الشمال الشرقى من الهند، بؤرة مثقلة ومشحونة بانفعالات كلا الطرفين. وتعد المدينة أحد المزارات المقدسة الستة لدى الهندوس، كما أنها تشتهر بسحر طبيعتها، وجمال معابدها الشامخة. ومنذ نحو تسعمائة عام، تم مهاجمة تلك المدينة ونهبها بواسطة قوات مسلمة قدمت من أفغانستان. أما بابور، مؤسس الإمبراطورية الموغالية، فيقال إنه أقام مسجدا هناك. وقد ادعى الهندوس، بعد ذلك بكثير، أن ذلك المسجد قد أقيم فى موقع أحد المعابد الهندوسية (معبد رام)، ولو أن الدليل على ذلك لا يرقى لمرتبة اليقين. ولقد كان هذا الموقع هو الذى تم اختياره من قبل حزب "بهاراتيا جاناتا" عام ١٩٩٢، حين قررت أن تخلق تحديا هندوسيا صارخا ضد مفهوم الموغالية، والهند المسلمة. ففى أعقاب استعدادات وتنظيمات ممتدة، نظم الحزب مسيرات ضمت نحو ١٥٠ ألف هندوسى، تم تسليحهم بمعاول لمهاجمة مسجد "بابرى" الذى تم تحطيمه إلى أشلاء صغيرة. وقد كانت رمزية الحدث هائلة لكلا الطرفين ... ذلك الحدث الذى أطلق موجات من الثأر المتبادل على امتداد الأراضى الهندية. وقد كان لهذا الحدث أصداء فى "أيوديا" عام ٢٠٠٥، حيث أقدم خمسة مسلحين مسلمين على تفجير المقر المؤقت لمعبد رام الجديد فى المكان الذى كان يشغله قديما، إلا أن الحادث قد أسفر فقط عن مقتل جميع أولئك المسلحين.

لقد أدت نشأة "شيف سينا"، الحزب القومى الهندوسى، ومقره بومباى - إلى زيادة استقطاب المشاعر الإثنية والدينية فيما بين الطرفين فى ولاية ماهاراشترا. ولقد استهدف الحزب، لكرهيته الشديد لهجرة هنود الجنوب لبومباى، المسلمين بصفة خاصة، والذين يبلغ تعدادهم نحو ١٥٪ من إجمالى سكان بومباى. كذلك، فقد تبنى الحزب قيما فوق قومية، ولغة خطابية بليغة، كما تخصص فى تجنيد قاطعى الطرق بغرض ترهيب مسلمى الجوار وترويعهم، فيما استطاع، فى الوقت

ذاته، إحكام قبضته على إدارة الحكم بالمدينة وتسييرها باقتدار ملحوظ. وفي عام ١٩٩٢، نشبت أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين في بومباي، حيث قتل نحو ٩٠٠ شخص، أكثرهم من المسلمين الذين أُحرق أغلبهم أحياء. ولقد أسفرت تقارير لجنة التحقيقات الرسمية عن ضلوع "شيف سينا" في التحريض على أعمال الشغب تلك. وفي آذار/مارس ١٩٩٣، وفي ردة فعل إزاء تلك الأحداث، تم تفجير ثلاث عشرة قنبلة في بومباي أسفرت عن مقتل ٢٥٠ فرد. وقد أعزيت تلك التفجيرات إلى تنظيم يتبع المافيا الإسلامية. وبذا، فقد نشأت سلاسل متفرقة من العنف السجالي في غير موضع من الأراضي الهندية.

وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، وقع اعتداء وقع حين أقدم خمسة مسلحين مسلمين على مهاجمة مبنى البرلمان الهندي في نيودلهي في رابعة النهار. والطف الأقدار، اقتصرت الوفيات على أفراد الحراسة وجميع المسلحين. بيد أن الصدمة القومية التي أحدثها هذا الاعتداء على رمز كبير له دلالاته كالبرلمان، كانت هائلة. ولقد ذكرت السلطات الهندية، بعيد التعرف على مرتكبي الحادث، أنهم ينتمون إلى "جيش الراشدين" و"جيش محمد"، وهي جماعات تتخذ من باكستان مقراً لها ... جماعات تلقت دعماً باكستانياً طيلة السنوات السابقة لتنفيذ عمليات بعينها في كشمير.

أما عام ٢٠٠٢، فقد شهد أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين في ولاية "غوجارات"، كانت مروعة على نحو خاص حيث لقي نحو من ألفي مسلم حتفهم أثناء تلك الأعمال. فوفقاً للـ"جارديان" البريطانية :

في ولاية "غوجارات" الهندية، ووفقاً لمسح محلي، تم تدمير ٢٢٠ أثراً إسلامياً فريداً وتخریبها، احتوت مسجداً بالغ الروعة بنى منذ أربعمئة عام وذلك خلال أعمال الشغب الأخيرة ضد المسلمين هناك. وقد ذكر المختصون أن التدمير كان واسع النطاق بحيث يضاهاى الحدث الأكثر شهرة لتدمير "الباميان" البوذية في

أفغانستان، أو تحطيم معابد البوذيين في جبال التيبب على أيدي الحرس الأحمر. وفي انتهاكات على الجانب المقابل، عمد الفوغائيون الهندوس إلى تدمير واجهات المساجد، وإلقاء الأحجار لتحطيم الزخارف والتقوش الفارسية، وإضرار النيران وإحراق نسخ أثرية من "المصاحف القرآنية" ... "لقد كان هذا سعيًا حثيثًا منظمًا لمحو حضارة برمتها وإزالتها"، كما ذكرت السيدة/تيسستا سيتالفاد - مؤسسة الكيان المعارض للكفاح والصراع الجمعي، والذي حمل اسمها، والقائم على جمع ما تعلق بتلك الانتهاكات.

لذا، يجب النظر إلى الاعتداء الإرهابي المروع للجهاديين الإسلاميين في بومباي في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ باعتباره إحدى حلقات سلسلة ممتدة: فقد حصد ذلك الاعتداء، بلا تمييز، نحو ألفين من الأرواح على نحو عشوائي، في هجمات متعددة على بعض الأماكن العامة والقنادق الكبرى - وهو من نوعية الأحداث التي أدت إلى هجمات مضادة بحق المسلمين في الهند، بالرغم من كونها قد بدت وكأن لم تكن يد ضالعة بها. وترسخ تلك الحوادث جميعها عدم شعور المسلمين، جمعياً، بالأمان، وتقود إلى جعل الهوية الإسلامية في حالة من الترقب والدفاعية، والتي أضحت سمة للمجتمعات المسلمة على امتداد معظم أرجاء العالم الإسلامي.

وفي دراسة عن "التوترات الجمعية" في الهند أجرتها مكتبة الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٥، أعزيت معظم أعمال العنف الجمعية هناك، لا إلى "العداءات التاريخية"، ولا إلى الأصولية الدينية، على نحو كبير، وإنما إلى تضافر المشكلات السوسيواقتصادية، واستراتيجيات وتكتيكات السياسة الهنود غير المسئولة من عام ١٩٨٠. كما أوضحت تلك الدراسة الطابع المقلقل للتحضر متنامي الوتيرة، وما يحدثه من عدم استقرار، وكذلك التنافس المتزايد بين الجماعات المختلفة لتوفير متطلبات المعيشة. وفضلاً عن ذلك، فقد حددت الدراسة التغيرات التي طرأت على مسيرة العملية السياسية في الهند، والتي أفضت إلى استغلال السياسيين

للمشاعر الدينية على نحو خطير، والانحياز الشوفيني لطبقة الهندوس ذات الأغلبية العديدة ... كل ذلك من أجل مكاسب انتخابية قصيرة الأجل. ولقد أسهمت أعمال العنف التي قادتها الجماعات الإسلامية من حرب للعصابات في كشمير، والعنف الذي قاده السيخ في إقليم "البنجاب" - في شعور الأغلبية الهندوسية بأن "الأقليات الدينية تعتمد إلى توظيف التكتيكات العدوانية للحصول على امتيازات خاصة من الحكومة". وخلصت الدراسة إلى أن "استغلال السياسة والمجرمين للتوترات الدينية في الهند قد أبرز بجلاء المدى الذي أضحت بمقتضاه المشاعر الدينية هناك وسيلة للمناورة والضغط".

وقد أشارت مجلة "تايم" الأمريكية، في تغطية خاصة لها عام ٢٠٠٣ عن أعمال الشغب في الهند، إلى الصدع الكبير والتباين السافر فيما بين الهندوس والمسلمين هناك. فوفقاً لمعيار "العنف" فحسب، نجد :

المسلمين في الهند أكثر عرضة لأن يكونوا ضحايا الهجمات والاعتداءات العنيفة، وذلك مقارنة بالهندوس. ففي جميع أعمال الشغب "الجمعية" منذ الاستقلال، كشفت السجلات الرسمية للشرطة الهندية عن أن ثلاثة أرباع الأرواح المزهقة والممتلكات المدمرة كانت من نصيب المسلمين ... وهي النسبة التي قفزت إلى ٨٥٪ خلال أعمال الشغب في ولاية "غوجارات" عام ٢٠٠٢ .

إلا أنه في أعمال الشغب التي قادتها الأغلبية الهندوسية (اعتباراً من عام ٢٠٠٣)، والتي أسفرت عن ستة آلاف قتيل، على وجه التقريب، لم تتم محاكمة أولئك المسؤولين عن حوادث الاغتصاب، وإحراق الممتلكات، والقتل إلا فيما ندر. على أن التأييد الضمني للحكومة الهندية، على الصعيدين المحلي والقومي، في ظل حزب "بهاراتيا جاناتا" - لأعمال العنف من قبل الهندوس هو ظاهرة يصعب إخفاؤها.

كذلك أشارت مجلة "تايم" إلى أن ٤٠٪ من المسلمين في المدن الهندية يقبعون في الشريحة الدنيا للدخول بالمقارنة بـ ٢٢٪ من الهندوس. وبالرغم من أن المسلمين

يشكلون ١٣٪ من إجمالي تعداد السكان بالهند، إلا أنهم يشغلون فقط ٣٪ من إجمالي الوظائف الحكومية، بل وتقل النسبة لمن يتم تشغيلهم بواسطة الهندوس في القطاع الخاص. ويبلغ معدل الأمية بين المسلمين في المدن الهندية نحواً من ٣٠٪ بالمقارنة بـ ١٩٪ في صفوف الهندوس. وقد أورد رئيس أحد الأحزاب الهندوسية المعتدلة تعليقا جاء فيه: "هناك اتجاه سائد في الهند للنظر إلى المسلمين وفق صيغة "هم"، لا وفق صيغة "نحن". وبالطبع، فإن لهذا الاتجاه عواقب وخيمة. وإلى اليوم، وعلى وجه العموم، لم يتم السماح لمسلمي الهند بالانتخراط فيما نطلق عليه "التيار السائد" في بلادنا".

إن انبثاق القوميات في الهند هو، بالفعل، محرك معاصر للعديد من القوى المتفاعلة آنياً: رداً الفعل المناهضة للكلونيالية، الاتجاه "الوطني" والشعور "القومي"، التمايزات الإثنية والطبقية والإقليمية، إلى جانب التنافس الاقتصادي. وتظهر الأحداث المضطربة التي خيمت على مجريات التاريخ المعاصر في الهند - مدى قبح القوى المحركة للنعرات القومية ورداعتها حتى في ظل نظام ديمقراطي.

إلا أن الخبرة التاريخية للمسلمين في الهند تسفر بجلاء عن التعايش المثمر الذي تقاسم بمقتضاه الطرفان المسلم والهندوسي إثراء أحدهما للآخر. فالحضارتان، الآن، مترابطتان ارتباطاً وثيقاً، كذلك فلا يستقيم الحديث عن وجود "حدود حضارية" فيما بينهما، وينحصر خيارهما في إيجاد صيغ جديدة للتعايش المشترك في ظل الدولة الهندية. ففي هذا الإطار، أسهم الإسلام، بفاعلية، في التأثير الكبير في مجريات المسار التاريخي في الهند، وذلك، بالأساس، من خلال التكامل، والاندماج، والانصهار في المجتمع. فالمسلمون، في الهند، ليسوا كلاً متجانساً، فهم متفاوتون تفاوتاً ملحوظاً، كذلك فهم موزعون على أرجاء شبه القارة الهندية. ولكن، وللمفارقة، فإن الإسلام يمثل الآن تجسيدا لمشاعر الاستياء لدى الأغلبية الهندوسية بشأن العديد من القضايا التي لا تمس "الدين"، في جوهره، من قريب أو بعيد، بل تجد جذورها في الصراعات "الجمعية" المتنوعة من أجل امتلاك

مقاليد السلطة والهيمنة. ووفقا لهذا السياق، فإن المسلمين هم مجرد جماعة واحدة من بين العديد من الجماعات التي ينتظمها الفكر "الجمعي"، والتي تتنافس فيما بينها في ظل مناخ من العنف والتشاحن. فالدور الذي تضطلع به باكستان، بهويتها القومية غير المستقرة، ومخاوفها الجيوبوليتيكية القلقة، وضلوعها في أحداث كشمير وأفغانستان - يعمل على زيادة حدة المشكلة. وبالطبع، فسيكون أحد المشاهد المأساوية، في عصرنا الراهن، أن نرى قيام القوى ضيقة الأفق المنتمية لجميع الفصائل المتناحرة بتمزيق أو اصر تلك الفسيفساء الحضارية والثقافية شديدة التداخل، ونقطيعها إرباً.

ويبقى السؤال المنطقي : هل إذا لم يكن ثمة حكم بريطاني للهند باعتبارها إحدى المستعمرات التابعة للتاج، أكان من المحتم أن نشهد تقسيما للهند على النحو الذي جرى؟ وهل ما إذا استشرت عوامل الضعف في جسد الإمبراطورية الموغالية، على نحو تدريجي من ولاية هندية إلى أخرى، أكان للهندوس والمسلمين أن يقوموا بتجربة بعض الاقترايات غير الناجعة لمصالحهم، والإبقاء على مفهوم "الهند الموحدة" كهدف مشترك، ولو على أساس فيدرالي؟ ... يبدو ذلك أمرا محتمل الحدوث. كذلك، يبدو من غير المحتمل أن يكون ثمة تفكير في ميكانيزمات للتقسيم، أو تنفيذ ذلك الأمر بواسطة الهندوس والمسلمين بمفردهم، فقد استدعى ذلك تدخل قوة إمبريالية كبرى ذات سلطات كاسحة لإنجاز ذلك التقسيم على أرض الواقع. ويبدو أن السيطرة الإمبريالية البريطانية على الهند على امتداد عدة مئات من السنين - وليس "الإسلام" بحد ذاته - هي المفتاح للإجابة عن أسباب إجراء ذلك التقسيم "النكد"، وغير الضروري ودوافعه... والذي ظل "عقيما"، وعاجزا عن الإتيان بأية حلول على وجه الإطلاق.